٢ ـ أحمد رامي

للأستاذ دريني خشبة

كل الناس على أن موهبة رامي في الغزل وشعر الغناء هي خير مواهبه ... ونحن لا نرى هذا الرأى

لا نرى هذا الرأى بالرغم من هذه الخمسين والمائة أغنية التي تملأ آذاننا وقلوبنا ، وتتدفق مع أعذب الأصوات وأرخمها في كل جوارحنا ، وتطوى مع الأثير في كل لحظة ألفاف الهواء حول كواكبنا ؛ فتتداوى كلوم المحبين ، وتذهب بلواعج المدنفين وتترنم بها الأصوات كلها حتى المنكر منها والأجش ، فيخيل لها أنها صارت بلابل !

لا نرى مطلقاً أن موهبة رامي هي روحه الغنائية التي تجيد الغزل ، وتفتن في مذاهبه هذا الافتنان الحلو الموفق ، الذي يحس الناس في ثناياه حرارة الحب ، ويتسمعون إلى دقات القلوب العاشقة ، ويشهدون من فنون الجفون المؤرقة ، والأنفاس المحترقة ، أشكالاً وألواناً

إن رامي الذي يحترق من أجلنا ، ويذيب قلبه وروحه كيما يطب لنا ، هو شاعر الإنسانية ولسانها الناطق وترجمانها الأمين

إن الذين يزعمون أنه شاعر الليالي الحمر ، والسهرات الصوادح ، أولئك يصدفون عن حقيقة رامي ، ويخطئون جوهره ، إنما رامي هو شاعر الإنسانية كلها ... الشاعر الذي صدق في التعبير عن آلامها ، لأنه بلا منها الشيء الكثير والشيء المتنوع ، والغزل ـ أو شعر الحب ـ هو أحد الألوان التعبيرية الصارخة التي أذهلت الناس عما هو أشد منها من ألوان رامي التعبيرية الأخرى ، لأنهم سمعوه من هذين اللسانين الخالدين[1] وحياً بديعاً ، لا تسجيعاً ولا ترجيعاً ، ولو ذكرنا قلب رامي المعذب ونحن نلتذ أغانيه تشيع بالنشوة في أرواحنا ، لحق أن نتذكر قوله :

أنا في غيهب الحياة منار ضاء من فرط نوره الديجور
لم أذق في الحياة للسعد طعما كيف يدرى الحلو الفم المرور
أطرب الناس بالأغاني من الشعـ ـر وفي القلب لوعة وسعير[2]

ولذكرنا أن رامي يستعين بشعره للتنفيس عن آلامنا بما ينظمه لنا من تباريح قلبه شعراً نحسبه يفيض بهجة في حين أنه يقطر دماً . ونخاله يندى بشاشة في حين أنه يتنزى ألماً

دعيني يا بنات الشعر أبكي على ما نالت الأيام مني
أمان مستتر في قلبي صغاراً كما ذوت الأزاهر فوق غصن
وزرع طاب لم أقطف جناه وكم بذرت يداى ولست أجني
وأهل أصبحوا بدداً وشدوا إلى دار النوى أرحال ظعن
ولست أطيق بعدهم ، ولكن أروح عن فؤادي بالتمني
فكوني يا بنات الشعر أهلي وأشياعي لدى البلوى وركني
وغني من أساك وألهميني فبينك في الهوى عهد ويمني
أراك بخاطري وأودأني أراك بناظري وأن تريني
إذن أشفقت من وجدي وسقمي وشفك لا عجي وشحوب لوني[3]

ولسمعناه يستعبر قائلاً :

أحن إلى الماضي كما يذكر الحمى طليح نوى ترمى به الفلوات
وأندب أيامي اللواتي تصرمت لشعري إذا ضمتني الخلوات
وفي الشعر تأساء وفيه رفاهة وفيه لقلب ياقظ نشوات
أنيم به حزني كما يبعث الكرى إلى عين طفل صارخ نغمات
وأكذب نفسي أنني إن صدقتها أغار عليها الهم والحسرات
لقد ألفت نفسي الشقاء وإن يكن ألماً فمن آلامه الخطرات
وما يحسن الأشعار إلا معذب تضرم في أحنائه الحرقات
ولو كان كل ناعماً في حياته لما بهرتكم هذه النفحات

لقد صنعت لنا الآلام من رامي هذا الشاعر المرهف الحس ، الدقيق الشعور ، الذي حرك ألسنتنا ، كما ملأ عواطفنا ، بأغانيه ولعل كارثته في المغفور له والده العزيز ـ الدكتور محمد رامي ـ المتوفى بالقاهرة يوم الأحد ٢١ سبتمبر سنة ١٩١٩ ، هي التي وجهت قلب رامي ، أو شعره ، تلك الوجهة الإنسانية التي تجتمع فيها عواطف الألم والرحمة والرثاء للضعفاء ، وإسعاد المحزونين ، وتمني الخير للناس جميعاً ... وذلك أن الشاعر قد ألقيت على كاهله بوفاة والده مسئوليات عائلة كاملة ، فيها الأم البارة الرؤوم

(١) أم كلثوم وعبد الوهاب

(١) ديوان رامي ج ٢ (٢) ج ٢ ص ١٠

وفيها الأخوة الصغار الخضر كأفراخ القطا ، وفيها الشاعر نفسه الذى لم يكن يغنى ، وينظم خلجات شبابه الغض وصباه المتفتح ، باقات يانعة من هذه القصائد التى يضمها الجزء الأول من ديوانه ١٩٢٦ — ١٩٣٧ حتى قذف بقلبه جميعاً فى خضم اليتم المصطخب ذى الأمواج والأثباج ، ولهذا لا نكاد نرى ديواناً عربياً من دواوين شعرائنا يفيض بالروح العائلى كما يفيض به الجزء الثانى من ديوان رامي وما جاء من ذلك فى الجزءين الأول والثالث ، وما لم ينشره رامى من شعره فى ديوان بعد ... وذلك إذا استثنينا ديوان « أنات حائرة » لشاعرنا الجليل الأستاذ عزيز أباظة بك

اسمع إلى رامي ينظر إلى سرير أبيه المريض ، ثم يتوجع ويقول من قصيدته « نهر الحياة » ، ذاكراً أخاه النازح ، وأمه وإخوته :

يا نهـــر أيامي ، أما آخرا ... لشـــقة العيش التى أقطع
أربت همومى فنبا مضجعي ... وصاحب الآلام لا يهجع
أب طريح فى فراش الضنى ... أقض فى رقـــدته المضجع
تقابعت فى الليـــل أناته ... وكل أنات الدجى تسمع
شكا من الداء الذى شـفه ... وانهمرت من عينه الأدمع
وقال أخشى أن يحل الردى ... ولى قطا زُغبٌ ولى مطمع
أخاف أمضى عنهم تاركاً ... عشهم تلوى به زعزع
ولى أخ يا نهر عيشى خلت ... منه ديار وخـــلا مهيع
وكان أنسى فى ضمير الدجى ... وكان لى من عطفـه مرتع
فهـل لذى العلة من صحة ... وهل لنضـو نازح مرجع
وهل لليل العيش من مشرق ... يجلو ظلام اليأس إذ يطلع
لو كنت فرداً لم أرع إربة ... إن كان يعطى الدهر أو يمنع
لـكن لى أماً ولي إخـــوةً ... ولى أباً فى ظـــله ترتع
ولا يطيب العيش إلا إذا ... سـقاهم حوض المنى المترع

هذا شعر يحس فيه القارئ لذع الألم الذى يرتجف أمام شبح اليتم

ثم مات الوالد المريض ، وبعد أن خفت وقدة الحزن فى نفس رامى ، رثاه بتلك المنظومة الفريدة التى أومأ فيها إلى أيام مرضه ، ثم إلى الأمانى التى كان الوالد يعلقها على الشاعر الشاب ، وإلى الوضع الذى وضعته فيه المقادير بعد هـذا الخطب الجلل :

كم جنى والد على أبن ولـكنا ... جنينا عليك — صفحاً وغفرا
ثم هنيئاً فليس بالميت من خلـــف من بعد موته ابناً أبرّا
أنا أحنو على اليتامى وأرعى ... أيّما عاشرتك بالطهر دهرا
ثم أحيى ذكراك ميتاً وقد خلد
ت ذكرى تضوع فى الـكون نشرا

ولم يفتأ رامى يذكر أباه ويرعى عهوده ، ويذرف عليه دموع أمانيه :

كم مر بى عيد تمنيت أن ... يكسونى فيـه جديد الثياب
وكم تقضت بى ليـال ولا ... سمير لى فيهن إلا الـكتاب
وحين أدركت المنى لم أفز ... من ثغره بالبسمات العذاب
وكم جلسنا أسرة نرتجى ... رجوعه بعـد طويل الغياب
نرنو إلى موضـــعه بيننا ... وقد خلا من بشره والحبابْ
... ...
نشأت فى يتم ولى والد ... فما اكتفى الدهر بهذا العذاب

نرنو إلى موضعه بيننا ! ما أبسط هذا التعبير وما أبدعه وما أشد لذعه ! لقد كان يتم رامى مفجر ينابيع الإنسانية فى قلبه الشاعر النابض الـكبير ! لقد صحبه ذلك الشعور باليتم حتى فى رثائه أصدقاءه ، ولعل ما رثى به صديقه ، فقيد الأدب والشعر والمسرح المرحوم محمد تيمور ، هو من عيون الشعر العربى فى باب رثاء الأصدقاء :

كيف أرثيك يا رفيق شبابى ... يانجيى من شـيعة الأحباب
أبدمعى ؟ الدمع أرخص ما يبـــكى به صاحب على الأصحاب
أنت أولى بأن يبلل مثـوا ... ك بنضح من الفؤاد مذاب

وهو يلم فى القصيدة كلها تلك الإلمامات العائلية المؤلمة التى لا يقدرها إلا من جربها ، والتي تذيب القلوب وتقطع نياطها ألماً وحزناً :

طار لبى لما نعيت وضاقت ... بى دنيا كثيرة الأسـباب
تلك حالى ؛ فـكيف حالك يا تيمـــور لما غدوت فى الغيـاب
خلت الدار منك يا بهجة العمـــر وأقوت من سرحها المخضاب
ثم أضحت (ريرى) تنـادى أبى أيْـ
ـن ولا من يرد رجع الخطـاب
طرت من عشها وكنت لها عطـــفا ورقا تحت الظلال الرطاب
ثم طال انتظارها لك حتى ... يئست بعد صبرها من إياب
فاطمأنت على مصارحة الدهـــر وقرت على أليم المصاب